ابن حزم في كتابات المستشرقين

سانتشث البرنس (Sanchez–Albornoz)

رينهارت دوزي (Reinhardt DOZY) نموذجاً

الدكتور: علي دياب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

ابن حزم في كتابات المستشرقين

سانتشث البرنس (Sanchez-Albornoz) رينهارت دوزي (Reinhardt DOZY) نموذجاً

الدكتور: علي دياب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

إنّ للاستشراق فرقاً وتيارات مختلفة، يرتدي معظمها إن لم نقل كلها ثوب الموضوعية، والنزاهة والعلمية، ولكنها في الواقع تخفي حقيقتها على المطّلع عليها، إذ لا يتنبّه إلى ما فيها من ضعف في التحليل، ونقص في الاطلاع، وتسرع في إطلاق الآراء المسبقة، تكاد خليطاً من المعلومات الصحيحة والأخطاء الفادحة.

إننا نجد وبكل أسف أن عدداً من الباحثين العرب المعاصرين قد تأثر بكتابات المستشرقين، وانبهر بما قامت عليه من أسس، وبالنتائج الخطيرة التي تمخضت عنها من افتراء على التاريخ، وتزييف للحقائق. وباختصار يمكن القول: إن دراسات المستشرقين هدفت إلى تثبيت بعض المفاهيم السلبية عن العرب، والتي تتلخص في أن العربي متخلف بطبيعته، وجاء الدين الإسلامي ليؤكد ذلك، فهو دين زجر ونهي، أفقد الأمة العربية روح الإبداع والابتكار، ولم يتعدّ دور العلماء العرب في مراحل التاريخ المختلفة سوى تقليد الأمم الأخرى، والنقل الحرفي عن لغاتها، وأن العلاج الوحيد لهذه

الأمة كي تنهض من غفوتها عليها أن تأخذ بما جاء به المستشرقون وأن تحذو السلوك الغربي.

إن نظرة عمق وتأمل فيما ذكر، تظهر بكل جلاء ووضوح الحيف الذي لحق بثقافتنا العربية من كتابات معظم المستشرقين، فعلى الرغم من تعدّد اللغات التي كتب بها أدب الاستشراق، والاتجاهات التي سار على منوالها، فلا يزال بحاجة إلى غربلة وتقويم. إن الأمانة العلمية ترتب علينا أن نكون موضوعيين في أحكامنا وليس تلك الموضوعية التي لبسها الكثير من المستشرقين، فهناك بعض المستشرقين المنصفين ولو كان عددهم لا يتجاوز كثيراً عدد أصابع اليد الواحدة أو اليدين، إذا ما قورنوا بعشرات المستشرقين الذين ناصبوا العروبة والإسلام العداء، وكرسوا جهودهم لتزوير وإنكار ما قدمته الحضارة العربية للحضارة الإنسانية. نذكر من المستشرقين المنصفين على سبيل المثال:

من الإنكليز السير توماس أرنولد T. Arnold والأستاذ آربري Arbury والأستاذ جيوم Guillaume ومن الفرنسيين الأستاذ ما سينيوس Massignon، والأستاذ جاك بيرك J. Berque والأستاذ بلاشير (R) Blachere والدكتور روجيه غارودي والدكتور موريس بوكاي حيث انتهيا إلى اعتناق الإسلام والتبشير به من خلال أبحاثهما، ومن الألمان الدكتورة زيغريد هونكه (Sigrid Hunke) ومن الأسبان: فرانسيسكو كوديرا (١٨٣٦-١٩١٧)، (Francisce Codera) وتلاميذه الذين عرفوا ببني كوديرا[١]، والأستاذ خوان فيرنيت (Juan Vernet). وهنا أود أن أذكر شيئاً سريعاً عن السيد كوديرا يقال: إنه ينحدر من أصول عربية، واختار لنفسه صيغة عربية هي: الشيخ فرنسيشكو قدارة زيدين (Zaydin).

فكوديرا كان متميزاً بتسليطه الضوء على الحقيقة، وجهره بها ويعلن فضل العرب على الحضارة الإنسانية وحفاظهم على التراث القديم فيقول: "إن العرب كانوا أكثر

شعوب العصور القديمة والوسطى اهتماماً بالعلم، وأغزرهم تأليفاً في شتى صنوف المعرفة" وكان من الداعية إلى تعريب الحضارة الأوروبية، ويقول في بعض ما ذكره عنه جيمس مونرو: إن من الخطأ العمل على "أوروبة إسبانية" بل الواجب هو تعريب أوروبة وعلى إسبانية أن تسترد دورها الأندلسي القديم في هذا التعريب[٢].

نكتفي بهذا التقديم الوجيز وننتقل إلى موضوع بحثنا: ابن حزم في كتابات المستشرقين. يعدّ ابن حزم الفيلسوف، الباحث والفقيه، الشاعر والأديب، اللغوي المؤرخ، السياسي والمفكر، من أهم النماذج التي تعكس تباين الموقف الاستشراقي تجاه كثير من مظاهر الثقافة العربية الإسلامية، فغنى هذه الشخصية العظيمة يغري كثيراً من الثقافات بادعاء انتمائه إليها، ولاسيما عندما تتعدّد الآراء في تاريخ هذا الرجل الذي تتنازعه الانتماءات العربية والإسبانية والفارسية. فقد تباينت آراء الباحثين المحدثين في نسبه، فذهب دوزي وجولد تزيهر إلى أن جدّه أو والد جده لم يكن عربياً ولم يولد مسلماً، وإنما اعتنق الإسلام، وأظن أنهما استندا إلى قول ابن حيان:

"فقد عهده الناس خامل الأبوة، مولدَّ الأرومة، من عَجَم لبْلة، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام"[٣].

أما الحميدي وهو تلميذ ابن حيان فيقول في جذوته:

"إن أصله من الفرس، وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان"[٤].

ويفتخر ابن حزم نفسه بنسبه الفارسي وولائه لبني أمية فيقول في إحدى قصائده:

سما بي ساسان ودارا وبعدهم قريشُ العلى أعياصها والعنايس

فما أخّرت حرب مراتب سؤددي ولا قعدت بي عن ذرى المجد فارس[٥]

وهكذا نجد أن كلا النسبين يبعدان نسبة ابن حزم إلى العرب، إلا أننا نجد أن نسبته إلى الفرس تجعل لأسرته جذوراً إسلامية راسخة، أما نسبته على عجم لبْلة فيقصر علاقته بالإسلام على جده الأدنى أو والد جده، وقد أيّد هذا الرأي عدد من الباحثين، لأنه يصل ابن حزم بالمسيحية أو بالإسبانية رغبة منهم بدراسته في ضوء الوراثة القريبة.إلا أن الدكتور إحسان عباس يقول:

"ولكن أميل إلى ترجيح النسبة الفارسية، لأن اتهام ابن حزم في نسبه الفارسي، إنما صدر عن رجل ميال للذم والثلب، هو ابن حيان المؤرخ"(٦).

لا نريد أن نمضي طويلاً مع ابن حيّان أو د. إحسان عباس، وإنما نود أن نثبت رأي الفيلسوف الإسباني الكبير: أورتيجا إي جاسيت فيما إذا كان ابن حزم عربياً أم إسبانياً ومن ثم نتوقف عند رأي البرنس. يقول أورتيجا:

ومن الواضح أنني حين أدعو ابن حزم عربياً إسبانياً، فإنما أنسبه إلى العربية جاداً، وإلى الإسبانية بصورة غير جدية، ودون أن أحول بين الآخرين وبين أن يصنعوا ما يحلو لهم، ولست مستعدا من جانبي أن أغامر فأدعو "إسبانيا" في جدية كل من يولد على أرض شبه الجزيرة الإيبرية، حتى ولو كان من دم إيبيري أصلا، وحتى لو كان عاش فيها كل حياته فالأرض والجبلة الدموية تأتي في آخر قائمة الخصائص التي يمكن أن تحدد قومية الإنسان. لأن هذه خلاصة الواقع التاريخي، وإنما تكون لهما فعالية فحسب، حين تحتلان منه المكان الأول قبل كل الخصائص الأخرى، والدليل عليه بسيطا وشهيرا، يتمثل في أن بالإمكان أن يصبح المرء إسبانياً بأقصى ما تحتمله الكلمة من معنى، دون أن يكون قد رأى الأرض الإسبانية مطلقاً، وعلى النقيض يمكن أن يكونه، وبالمستوى نفسه، دون أن تجري في عروقه نقطة من دم جنسنا، أو فيه منه شيء قليل للغاية، ويصدق في ذلك عصرنا الآن، لأن إسبانية، منذ وقت طويل، حققت كامل قوميتها. أعظم بكثير جدا عما كانت عليه خلال القرنين العاشر والحادي عشر،

عندما بدأ الشيء الذي يدعى "إسبانية" ينبثق فحسب. وكل هذه الصفات القومية تعني، إذا أخذت بمعناها الدقيق، الانتماء الأصيل لمجتمع محدد، وكان مجتمع الأندلس العربي مختلفا، وشيئا آخر غير المجتمع، أو المجتمعات، غير العربية، التي كانت تسكن إسبانية إذ ذاك(٨).

ويقول المستشرق سانتشش البرنس: "لا أستطيع أن أوافق أورتيجا فيما وصف فيه ابن حزم من أنه عربي إسباني. وأجرؤ على أن أناديه بما هو نقيض لقوله: إسباني متعرّب(٩)". ويضيف: "أعتقد أن الرجل هو التاريخ، على حين يرى أورتيجا أن الشعوب تتغير مع حركة الأجيال السريعة، وأن الأمس يختلف دائما عن اليوم، وأن اليوم يغاير الغد، ولا يوجد عصران إسبانيان متماثلان، وذلك يسمح لنا بل يضطرنا، أن نعدّ إسبانيين كل أولئك الذين على امتداد التاريخ، داخل إسبانية وخارجها، فكّروا وأحسّوا وعاشوا على نحو ما كان مألوفا إذ ذاك في إسبانية الرومانية قبل فرياتو*بزمن طويل وحتى بعد بريم* بقرون عديدة(٩) "ويقول البرنس: ((ليس السلالة أو الأرض إذن هما اللذان صنعا من مؤلف "طوق الحمامة" إسبانية وإنما صاغه التاريخ من طين لبّلة الإيبيرية، ومن دم إيبيري يتدفق عبر جدوده المولّدين، وهي حقيقة نسيت، كما نسي من قبل أن نهر تنتو أقدم نهر إسباني(١٠))". ويمضي البرنس في التدليل على إسبانية ابن حزم وأنه تعرّب معتمدا على ما قاله ابن حزم نفسه وهو:

أنا الشمس في أفق العلوم منيرة ولكنّ عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع أجدّ على ما ضاع من علمي النهب(١١)

---

* فرياتو: إيبيري تزعم الثوار في شبه جزيرة إيبيرية ضد الاستعمار الروماني، فدفع الرومان بمن اغتاله عام ١٤٠ قبل الميلاد.

* بريم: قائد ليبيري إسباني، اشتهر في الحروب الأهلية التي عمت إسبانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

صحيح ما قاله ابن حزم، إلا أن استنتاج البرنس غير دقيق، فابن حزم يقول ذلك في حساده، ويأتي في إطار الردّ على ما كان سائداً في عصر ابن حزم حول علاقة الأندلس بالمشرق، ويحتج على انصراف معاصريه عما هو أندلسي تجاه ما هو مشرقي وأن العلاقة بينهما لم تعد علاقة الأصل بالفرع، أو التابع والمتبوع، فالأمر إذن لا يتعلق بغربية ابن حزم.

ومما يسوقه أيضاً البرنس مؤيداً قوله بالإسبانية ابن حزم ماذكره عنه ابن سعيد في مغربه: "وكان يجادل عن علمه هذا من خالفه، على استرسال في طباعه، ومذْل بأسراره، واستناداً إلى العهد الذي أخذه عل العلماء من عباده" ليبيّننه للناس ولا يكتمونه"، فلم يك يلطف بما عنده بتعريض، ولا يزفّه بتدريج، بل يصك معارضه صدك الجندل، وينشقه أحرّ من الخردل، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به منقطع أثره، بقرية بلده، من بادية لبلة، وبها توفي رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمئة(١٢).

ويذكر البرنس لابن حزم قوله: "حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض، وفي سائر سبل الحق، سواء قلّ من يعارض أو كثر، والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق(١٣).

يتكئ البرنس على أقوال ابن حزم في نقد الولاة والفقهاء، وذمّ الكذب، والدعوة إلى الشجاعة في الدفاع عن الدين والنساء والمظلومين، إذ يرى في ذلك نزعة كيخونية الدون كيخوتة أو كيشوتة بطل رواية سرفانتس الخالدة التي تحمل اسم البطل نفسه الذي كان يحلم بإشاعة العدل ورفع الظلم وتنظيم الكون، ثم رأى أحلامه تسقط الواحد تلا الآخر- لقد فات البرنس أن هذا النقد ليس خاصاً بابن حزم وحده وإنما نجده عند كثيرين غيره، فلو اطلع على سبيل المثال على رسالة ابن عبدون في "آداب الحسبة

والمحتسب" لما خلص إلى النتيجة التي انتهى إليها، وهذا المنزع ليس إسبانياً فحسب، بل هو مطلب إنساني عام، نجده لدى كل الشعوب والأقوام ولاسيما في الدين الإسلامي، الذي حضّ على تغيير المنكر بما يستطيع المرء من قوة، كما أن الساكت عن الحق شيطان أخرس".

كما يثبت البرنس قول ابن حزم: "إذا لم يكن بدّ من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق، أو منافرة الحق، فأغضب الناس ونافرهم، ولا تغضب ربك، ولا تنافر الحق[١٤]"، والغريب هنا في أمر البرنس أنه ينظر إلى كلام ابن حزم على أنه إسباني، ولا علاقة له بالروح العربية والإسلامية وهذا يذكرنا بحديث رسول الله (ص) أو بما في معناه (من أرضى الله بسخط الناس رضي الله وأرضى الناس فيه، ومن أرضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط الناس فيه).

هذا ويكشف لنا البرنس عن الموقف الإسباني لابن حزم تجاه الثروة:

"وذمني أيضاً بعض من تعسف الأمور، دون تحقيق بأني أضيع مالي، وهذه جملة بيانها أني لا أضيع منه إلا ما كان في حفظه نقص ديني، أو إخلاق عرضي، أو إتعاب نفسي، فإني أرى الذي أحفظ من هذه الثلاثة، وإن قل، أجل في العوض ما يضيع من مالي ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس[١٥]. وهنا نرد على البرنس وبكل بساطة إن من أهم خصائص العرب الكرم، وما عرف عن الرعيل الأول قبل الإسلام وبعده من الصحابة ومن تبعهم من بذل المال في سبيل الدين والعرض والنفس كفيل وحده بتفسير موقف ابن حزم، ولا علاقة له بموضوع إسبانيته.

لعل من أطرف ما استدل به البرنس على إسبانية ابن حزم قوله:

"ولنذكر أن الملامح النفسية التي ينسبها إلى ابن حزم من كتبوا سيرته، والصفحات التي خط عليها نفسه جانباً من سيرته تؤكد إسبانيته في عمق:

الشموخ، والعاطفة، والعنف، وطلاقة اللسان، واستقامة الكلمة، والوفاء، وتحليق الروح نحو الله، والقسوة في نقد الوطن، وحب الحقيقة، وشدة الخلق، والحماسة التي تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعاً عن أفكاره وشرفه، والنضال من أجل المثل العليا على نحو ما ناضل "دون كيخوتة" واحتقاره للثروة في مواجهة الشرف، وكراهية النفاق، واحتقار الملق، والصلابة في الشدائد، وعبادة الصداقة، وجود يبلغ حد السرف، وسهولة الغضب والبلاغة... إنها صفات إسبانية عريقة، تؤكد في وضوح وصدق ما قاله ابن حيان وابن سعيد عن أصوله الإسبانية...كان ابن حزم إسبانياً في أخفى طيات-أعماق روحه، ومن العدل أن نضعه بين أسمى قمم الفكر الإنساني على امتداد كل العصور، لأن حجم وتعقد ونفاذ إنتاجه الأدبي والفلسفي والفقهي والعقائدي يعطي له هذا الحق[١٦].

إننا نوافق البرنس على ما ذكره عن ابن حزم، ولكننا إذا أمعنا النظر في هذه الصفات فهل هي غريبة عن العرب والمسلمين؟ أم أنها في صلب المفاهيم والقيم العربية ومع تقديرنا للبرنس وابن حيان وابن سعيد، فإننا نقول: إن هذه الصفات هي عامة وإنسانية وتشكل قواسم مشتركة لدى الجميع وليست حكراً على قوم أو ديانة معينة، وختاماً يمكننا القول: إن قلة مخزون البرنس من الثقافة العربية وعدم إحاطته بخلفياتها هو الذي حال دون عقده مقارنات صحيحة للكثير من آراء ابن حزم وبالتالي أوقعه في هذه المغالطات أو النتائج التي توصل إليها.

دوزي وابن حزم:

أما فيما يخص المستشرق دوزي[١٧]، فقد اكتشف عام ١٨٤١، نسخة وحيدة من مخطوطة **(طوق الحمامة في الألفة والآلاف)** لابن حزم في مكتبة ليدن بهولندا، وأفاد من هذا المخطوط في كتابه "تاريخ مسلمي الأندلس" وتوقف أمام نص لابن حزم، يبين فيه خطاه الأولى في عالم الحب، وسنورد النص الذي أورده دوزي ورأيه فيه:

"وإني لأخبر عني أني ألفت في أيام صباي، ألفة المحبة، جارية نشأت في دارنا، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسبلة الستر، فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود، رزينة العقود، كثيرة الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجي نحوها، ولا تقف المطالع عليها، ولا معرس للأمل لديها، فوجهها جالب كل القلوب، وحالها طارد من أمها، تزدان في المنع والبخل، ولا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد في أمرها، غير راغبة في اللهو، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً، فجنحت إليها، وأحببتها حباً مفرطاً شديداً، فسعيت عامين أو نحوهما، أن تجيبني بكلمة، وأسمع من فيها لفظة، غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع، بأبلغ السعي، فما وصلت له من ذلك إلى شيء البتة، فلعهدي بمصطنع كلن في دارنا، لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء، تجمعت في دخلتنا، ودخلة أخي -رحمه الله- من النساء، ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا، ممن يخفّ موضعه، ويلطف محله، فلبثن صدراً من النهار، ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا، مشرفة على بستان الدار، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها، مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب، وأنا بينهن، فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي، أنسا بقربها، متعرضاً للدنوّ منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها، فتترك ذلك الباب، وتقصد غيره في لطف لحركة. فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه، فتعود إلى ذلك الفعل من الزوال إلى غيره، وكانت قد علمت كلفي لها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهنّ كنّ عدداً كثيرا.

وإذ كلهن يتنقلن من باب إلى باب، لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها، وأعلم أن قيافة النساء في من يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج

في لآثار، ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها، فأمرتها، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف في فوز حيث يقول:

إني طربت إلى شمس إذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير

شمس ممثلة في خلق جارية ... كأن أعطافها طيّ الطوامير

ليست من الإنس إلا في مناسبة ... ولا من الجنّ إلا في التصاوير

فالوجه جوهرة والجسم عبهرة ... والريح عنبرة والكل من نور

كأنها حين تخطو في مجاسدها ... تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمري لكأن المضراب إنما يقع على قلبي، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها، وفي ذلك أقول:

لا تلمها على النفار ومنع الـ ... ـوصل ما هذا لها بنكير

هل يكون الهلال غير بعيد ... أو يكون الغزال غير نفور[١٠٨]

بعد أن نقل دوزي هذا النص بلغة فرنسية شفافة عقب عليه قائلا:

"يلاحظ دون ما شك في القصة التي انتهينا من قراءتها، ملامح عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب، الذي يفضلون بصفة عامة الجمال المثير والعيون الفاتنة، والابتسامة الآسرة، والحب الذي كان يحلم به ابن حزم، يختلط دون، دون ريب، بما هو حسي جذاب، وعندما يكون الحبيب المنشود اليوم غيره بالأمس، يصبح الإحساس.

أقل قسوة ولكن ما فيه أيضاً ميل إلى ما هو أخلاقي، من رقة بالغة واحترام وحماسة، وما يأسره جمال رائق وديع، فياض بالكرامة الحلوة، لكن يجب ألا ننسى أن هذا الشاعر الأكثر عفة، وأكاد أقول الأكثر مسيحية، بين الشعراء المسلمين، ليس عربياً خالص النسب، إنما هو حفيد إسباني مسيحي، لم يفقد كلية طريقة التفكير والشعور والذاتية لجنسية هؤلاء الأسبان المتعربين يستطيعون أن يهجروا دينهم، وأن يبتهلوا بمحمد بدل المسيح، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامى في الدين والوطن، ولكن يبقى دائماً في أعماق أرواحهم شيء صاف رهيف روحي غير عربي(١٩).

أود الإشارة إلى أن دوزي كان حجة في الدراسات الأندلسية ولاسيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالتالي فكلامه عن ابن حزم وجد قبولاً كبيراً في أوروبة وقبل أن ندلي برأينا فيما ذكره دوزي عن نص ابن حزم، نود الإشارة إلى رأي مستشرق آخر جاء بعد دوزي وهو الراهب الإسباني ميغيل آسين بلاثيوس، إذ خص ابن حزم بدراسة عميقة، وهو عالم وحجة أيضاً في مجال الدراسات الأندلسية، وقد تناول أفكار دوزي في النص السابق والتي تتلخص في اعتباره ابن حزم نموذجاً للحب الروحي العفيف، وهو ما يسميه علماء النفس بالحب الأفلاطوني، وأن نفسيته ليست من خصائص الجنس العربي وإنما حبه الأفلاطوني أو الرومانتي ما هو إلا ارتداد لخصائص جنسه المسيحي والإسباني، وبالتالي فكان ابن حزم ضحية الحب الأول في شبابه، يبكي بلا أمل، الحظ التعس لقلبه المصدود.

ويرد بلاثيوس على دوزي في أن ابن حزم ليس كما يقدمه، وسرعان ما يدخل في حب اخر، لينسى أحزان حبه الأوّل ويورد لنا النص التالي لابن حزم:

"وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً، وأعظمهم حباً، بجارية لي كانت فيما خلا اسمها نعم وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خلقاً وخلقاً، وموافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار، وصارت ثالثة

التراب والأحجار، وسنّي حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف.."(٢٠).

ويعلق بلاثيوس بعد إيراد هذا النص لابن حزم، أنه لم يكن هذا الحب الثاني هو الأخير لأيام شبابه وبعد ذلك بأعوام عندما استطاع العودة إلى قرطبة وسط مغامراته السياسية، وقع في حب آخر، ويذكر نصاً لابن حزم يحدثنا فيه عن نفسه: "ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي، مشهورة بالخير والصلاح والحزم، ومعها جارية من بعض قراباتها، من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبا، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة وكنت تركتها حين أعصرت، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب، ففاض وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة، فترددت وتحيرت، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت، وانبعثت في خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت، فأتت كما قال:

فريدة صاغها الرحمن من نور | جلت ملاحتها عن كل تقدير
لو جاءني عملي في حسن صورتها | يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنت أحظى عباد الله كلهم | بالجنتين وقرب الخرد الحور(٢١)

من خلال هذه النصوص أراد بلاثيوس أن يقول: إن ابن حزم لم يخفق في حبه مرة واحدة، وإنما كان ذلك مرات عدة، بالتالي لم يعرض دوزي لهذه الحالات كي لا ينال من حب ابن حزم المثالي الأفلاطوني، ومع ذلك لا يمكن الإنكار أنه ينطوي على مشاعر رقيقة ولا تعرف ما هو حسي، وربما كان ذلك نتيجة ميل فطري عنده، وهذا ما صرّح فيه ابن حزم غير مرة في طوقه، وهو عزوفه عن كل ما هو جنسي، وإن

اجتماع الأرواح وليس التقاء الأبدان هو الذي يبقي على الحب، ويرى بلاثيوس أن دوزي تأثر بما هو شائع معاد عن حسية الحب عن الجنس العربي أكثر مما تأثر بما هو حق، وكانت تنقصه وغيره في ذلك العصر. تحليل المعاني العظيمة للأدب الإسلامي عامة[٢٢]. ويضيف بلاثيوس أنه منذ العصر الجاهلي ظهر لون من الغزل الروحي والعفيف كالحب المسيحي ويضرب مثالا على ذلك ما ظهر في الصحراء العربية لدى قبيلة بدوية من بني عذرة، إذ كانوا يفضلون الحزن الحلو المستسلم "المشوق على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية وهاهو جميل بن معمر الذي تتجسد فيه العفة والطهارة، مات من الحب دون أن يجرؤ في يوم من الأيام أن يمس يد محبوبته بثينة وهو القائل فيها:

لقد ذرفت عيني وطال سفوحها ... وأصبح من نفسي سقيما صحيحها

ألا ليتنا نحيا جميعا وإن نمت ... يجاور في الموتى ضريحي ضريحها

فما أنا في طول الحياة براغب ... إذ قيل قد سوّي عليها صفيحها[٢٣]

يؤكد بلاثيوس الحب العذري والعفيف لبني عذرة، المطهّر بحرارة الزهد البدوي وباختصار يقول بلاثيوس:

((إذا كان ثمة أثر من مشاعر مسيحية حقيقية، يمكن أن ينبض بها قلب ابن حزم، العدو اللدود للعقيدة المسيحية، وللأخلاق الإنجيلية، فليست بالتأكيد المشاعر التي ورثها عن أجداده عبر دمائهم، وإنما التي اكتسبها لا شعوريا، وعلى الرغم منه، بفعل عدوى لا محيص عنها، لجو المثالية المسيحية القوي، والذي ازدهرت فيه الحضارة الأدبية الإسلامية في المشرق طوال حياتها...))[٢٤].

هكذا نجد بلاثيوس المعروف بغزارة علمه، وتمكنه من العربية ومعالجته الموضوعية للقضايا الأدبية، إلا أن كتاباته كرجل دين كانت تخضع لمراجعة السلطات الكنيسية

ورقابتها، ومن هنا استطاع المستشرق بلاثيوس وبكل مهارة أن يرد الغزل العذري كله لا الأندلسي فحسب إلى أصول مسيحية، وكذلك المستشرق دوزي والمعروف بكرهه لرجال الدين وبعده عن التعصب، إلا أنه تأثر وكما أسلفنا سابقاً بما كان شائعاً في أوروبة في عصره، أن السمو في الحب وليد المسيحية. ونحن بدورنا نجد كلا الرأيين ينقصهما المعرفة الدقيقة لواقع الأندلس وتاريخه وبهذا الشأن نثبت رأي السيد الطاهر مكي إذ يقول:

"إنهما أي دوزي وبلاثيوس، يعرفان جيداً أن مسيحية الإسبان عند الفتح كانت رقيقة وأن علم الناس بها كان مشوشاً باستثناء رجال الدين، وأن جانباً لا بأس به من الناس كانوا وثنيين. وإذا كان من المرجح أن ابن حزم ينحدر من أصول إسبانية، فمن المرجح أيضاً أن أجداده لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية عند دخول الإسلام، لأنه من المنطقة الفقيرة في جنوب غربي إسبانية، وغالبية أهلها عند الفتح كانوا من الوثنيين. وعلى أية حال فإن ما كان يجري في الجانب العربي والإسلامي من الأندلس من مظاهر الحب الحسي، كان يجري مثله وأفحش منه في الجانب الإسباني المسيحي، ولم تجر في عروقهم دماء عربية، واتخذ جدودهم الإسلام ديناً[٢٥].

ويورد السيد مكي بعض الأمثلة عن الجانب المادي في الحب الذي يتناقض مع الروحية المسيحية التي توقف عندها المستشرقان السابقان ومن هذه الأمثلة، أن الفونسو السادس (ت ١٦٠٣) ملك قشتالة، أفنى حياته يقاتل من أجل الكاثوليكية ودفاعاً عنها، إلا أن طقوسها لم تمنعه من أن يجمع بين ست زوجات في وقت واحد، وكان على علاقة جنسية مع أخته آراكة (urraca)، وذكر ذلك ابن عذاري في البيان المغرب، وهو من المصادر المعاصرة لألفونسو، كما تحدثت عن هذه العلاقة، الأغاني الشعبية الإسبانية، منكرة أحياناً، ومتشفية أحياناً أخرى، أما إنريك الرابع (ت ١٤٧٤) ملك قشتالة الإسباني الكاثوليكي كان شاذاً جنسياً مخنثاً، يلاحق من لا يخضعون لرغباته المخجلة من حاشيته، بالقتل والسجن والنفي، ولم ير حرجاً في أن يعين

عشيقته كتالين سندوفال رئيسة لدير راهبات القديس بطرس، في ضواحي طليطلة، بعد أن طرد رئيسته السابقة، متحدياً أوامر المطران، وقرار حرمانه من الكنيسة(٢٦). ومن الشائع أيضاً أن كارلوس بن فيليب الثاني، كان على صلة غرامية بزوجة أبيه إيزابيل، ولذلك سجنه، ومات في السجن في ظروف غامضة، مسموماً أو مذبوحاً أو مخنوقاً، فبكته إيزابيل بكاءً مراً، فأصدر لها أمراً إمبراطورياً بأن تكف عن البكاء عليه(٢٧). لا نريد أن نسهب في ذكر مثل هذه الأمثلة، فهي كثيرة جداً، والمصادر والمراجع العربية والأجنبية تعج بمثل هذه الأخبار والموضوعات، وختاماً أود القول" إن ربط الحب العذري أو الروحي أو العفيف ومهما تعددت صفاته بدين ما، أو جنس ما، فهو مخالف للواقع التاريخي، ومتناقض مع أبسط المفاهيم العلمية، ولا يمكن لأي ثقافة ما أو حضارة معينة أن تدعي فرادتها بمعزل عما حولها، وعما قبلها وبعدها، فالحضارة الإنسانية كل متكامل، فالسابق يؤثر باللاحق، ويتأثر به وفق الظروف الموضوعية التي تحيط بالجانبين، فالعرب أخذوا من الثقافة اليونانية والرومانية التي سبقتهم وعادوا ليؤثروا فيها، وينقلوا إنتاجهم إلى اللغات الأخرى، إذ ترجمت مئات الكتب العربية إلى اللغات الأجنبية وخاصة الإسبانية، فالثقافة العربية في الأندلس كانت صلة الوصل بين الوطن العربي وأوروبة، تنقل المعرفة بضروبها المختلفة، وتنشرها في أصقاع المعمورة الأوروبية، ممهدة بذلك الطريق أمام النهضة الأوروبية التي وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم . إلا أن ما حصل في عام ١٤٩٢، عام اكتشاف الآخر، أدى إلى القضاء على هذا الآخر، وفي العام نفسه بدأ فيه مسلسل طرد الآخر من أوروبة، وسقطت غرناطة، وتم القضاء على التعددية في إسبانية، وبدأ اختراق الآخر عالمياً، مما أدى إلى توزيع العالم الثالث إلى ممتلكات أوروبية ونهبه لمدة خمسة قرون، مجمّلاً بالإعلام المزيف المشوه للحقائق، التي روّج لها كثير من المستشرقين غير المنصفين، أما اليوم فما أحوجنا إلى الباحثين الدارسين المنصفين، الذين يتصفون بمنهجهم العلمي وببحثهم الموضوعي بعيدين كل البعد عن التعصب

والكراهية، يؤمنون بحضارة إنسانية مطلوب من الجميع أن ينكبّ على دراسة الحضارات البشرية من خلال حوارها وليس صراعها، وفي ذلك السبيل إلى إبراز الوحدة الإنسانية، وإن ما وصلت إليه بعض دول العالم من ازدهار حضاري في العصر الحالي، ما هو إلا حصيلة الجهود المتراكمة للحضارات الكبرى التي تركت أثرها على تاريخ البشرية وتقدّمها وبالتالي فمن حق الأمم كافة أن تشارك في بناء الحضارة الإنسانية بناءً بعيداً عن التحيز وازدواجية المعايير، التي يشهدها المجتمع الدولي الآن في ظل هيمنة القطب الواحد، وسيطرة القوى الصهيونية وتحكّمها في هذا القطب، فهذا هو العربي الفلسطيني طفلاً كان أن شيخاً، يقتل صباح مساء، في مكتبه وفي غرفة نومه، فهو الإرهابي في ظل هذه المعايير!! والإسرائيلي العنصري القاتل، الذي لم يشهد التاريخ مثيلاً له فيقتل ويذبح ويهدم البيوت ويقلع الأشجار ويحرق الأرض ومن عليها، فهو الضحية التي تدافع عن نفسها!! ولكن إلى متى سيستمر هذا الوضع الشائن فلا بد وأن ينتصر المدافع عن أرضه وعرضه وينهزم الظالمون الحاقدون، وتعود الأرض والحقوق لأصحابها طال الزمن أم قصر.

الهوامش

(١) أهم تلاميذه: خوليان ريبرا (J. rebera)، آسين بلاثيوس (Asin Placios). أنخل جنثالث بالنثيا (A.G. Pa:encia) وغارسيا غوس (G. Gomes).

(٢) الإسلام والعرب في دراسات العلماء الأسبان (الفصل المكتوب عن كوديرا).

(٣) ابن بسام، الذخيرة ١٤٢/١/١ نقلاً عن د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ٣٠٤.

(٤) الحميدي، جذوة المقتبس: ٢٩٠، نقلاً عن المرجع نفسه.

(٥) د. إحسان عباس، ذكر سابقاً: ٣٨٥.

(٦) المرجع السابق: ٣٠٤-٣٠٥.

(٧) الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم: ٢١١-٢١٢.

(٨) المرجع نفسه: ١٤٥.

(٩) المرجع السابق: ١٤٦.

(١٠) نفسه: ١٤٧.

(١١) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٣٥٦/١.

(١٢) المرجع نفسه: ٣٥٥/١.

(١٣) الطاهر مكي: المرجع السابق: ١٦.

(١٤) المرجع نفسه: ١٦١.

(١٥) المرجع نفسه: ١٦٢.

(١٦) المرجع نفسه: ١٨١-١٨٢.

(١٧) رينهارت دوزي، مستشرق هولندي ١٨٢٠-١٨٨٣، متخصص في الدراسات الإسلامية.

(١٨) ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف: ١٠٩-١١٠.

(١٩) الطاهر مكي، المرجع السابق: ١٩١-١٩٢.

(٢٠) ابن حزم، طوق الحمامة: ٩١.

(٢١) المرجع السابق: ١٢٦-١٢٧.

(٢٢) الطاهر مكي، ذكر سابقاً: ١٩٤-١٩٧.

(٢٣) ديوان جميل بثينة: ٢٩.

(٢٤) الطاهر مكي، ذكر سابقاً: ١٩٩.

(٢٥) المرجع السابق: ٢٠٠.

(26) Maranon Gregorio: EnsayoBiologica Enrique, Madrid, 1960

(27) Plandal Ludwing: Juna la Loca, Madrid, 1959.

مصادر البحث ومراجعه

- ابن حزم، **طوق الحمامة في الألفة والآلاف**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، تقديم ابراهيم الأيباري، القاهرة، ١٩٦٤.
- **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، ١٩٨٠.
- **ابن سعيد المغرب في حلى المغرب** (٢)، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤.
- جميل بثينة، **ديوان جميل بثينة**، دار صادر ، بيروت، ١٩٦٦.
- عباس إحسان، **تاريخ الأدب الأندلسي**، عصر سيادة قرطبة(٥)، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٧٨.
- العباس بن الأحنف، **ديوان العباس بن الأحنف**، دار صادر، بيروت ١٩٧٨.
- مكي الطاهر، دراسات عن ابن حزم وكتابه ((**طوق الحمامة**)) (٣)، القاهرة، ١٩٨١.
- Maranon Gregorio: EnsayoBiologica Sobre Enrique, Madrid, 1960
- Plandal Ludwing: Juna la Loca, Madrid, 1959.
-